

من النارجيل إلى النخيل

(١)

الاستاذ قاضى اطهر المبارك بورى

فى تلك الحقبة من التاريخ التى بعث فيها النبى صلى الله عليه وسلم ، كانت تقطن أطراف جزيرة العرب وأنحاءها المختلفة شعوب كثيرة من النازحين الدخلاء الأجانب . ولما انطلقت الدعوة الإسلامية لقيتها هذه الشعوب كما لقيها العرب بالطبع . ولما استفحل أمر الدعوة وتجاوبت لها أصداء الجزيرة إلتحق أكثرها بالإسلام إقتداء بالعرب ، وبعضها ارتضى البقاء على دياناته السابقة بقبوله الجزية .

وكان الروم يسيطرون على المنطقة العربية المتاخمة للشام فى الشمال الغربى سيطرة الحاكم الأعلى . وكان العرب يمارسون فيها حكما يشبه الحكم الانتدابى ، اليوم ممثلين لسلطان الروم وهم كالغساسنة فى الشام والمناذرة فى الحيرة . وكان العراق فى الشمال الشرقى تحت سيطرة ملوك فارس (إيران) وكانت ابله المركز والمسرح لحيويتهم السياسية . كما كان الحكم فى جميع المناطق الساحلية فى الخليج العربى مثل البحرين وعدن إما لساورتهم أو للعرب الخضع لهم وكانت سلسلة مثل هذه الحكومات أو - بالأصح - الامارات تمتد إلى اليمن . وكانت المنطقة الساحلية فى شرق جزيرة العرب

(١) سلالة عربية يمنية الأصل استوطنت بلاد حوران وشرق الأردن وفينيقية اللبنانية وفلسطين الثانية والثالثة قبل الاسلام ظهر فيهم ملوك مشاهير منهم الحارث بن جبلة . (٢) اسم خمسة من امراء بني لحم أصلهم من اليمن رحل بعضهم قبل الهجرة إلى شمال جزيرة العرب وإلى بلاد سوريا وفلسطين ، والعراق حيث شاعروا مملكة لحم فى الحيرة وسمى ملوكهم بالمناذرة وكانوا خصاما لفسان كانوا مسيحيين ثم مسلموا . وكان المنذر الثالث من أشهر ملوكهم (٥١٤-٥٥٤ م) حارب الروم مرارا وقال : منهم القتال .

بأسرها تحت نفوذ الفرس وكان يوجد في مناطق غرب اليمن عدد كبير من الحبش والزنوج وكان الحكم في اليمن على عهد صبا رسول الله صلى الله عليه وسلم مسندا إلى رجل عربى يسمى سيف بن ذى يزن. فغلب عليه ملك الحبشة واستولى على اليمن بأجمعها غير أن استيلائه لم يلبث قليلا حتى استبدل به استيلاء الفرس الذى لم يزل قائما إلى البعثة. وخلاصة القول أن حدود جزيرة العرب كانت في سيطرة الأجانب الدحلاء واستغلامهم، وكان القائمون بالحكم فيها إما رجال من أنفسهم أو المواليون الممثلون لهم من العرب. ومن ذلك يستبين أن الروم والفرس والحبش والهنود كلهم كانوا يسكنون جزيرة العرب بما لهم من حضارات وتقاليد وكانت حقلا لهم لممارسة السلطة وسط النفوذ يوم بعثته صلى الله عليه وسلم.

ولم تكن الامم الهندية سلطة ونفوذ في جزيرة العرب مباشرة إلا أنها كانت تحتل مكانة وأهمية عظيمة لعدة أسباب أهمها يرجع إلى ما للفرس من سيطرة واستيلاء على معظم أقطار الجزيرة يومئذ. ففي حين كان الفرس يتمتعون بالسيادة والعلو على حكام وملوك الهند والسند وبلوخستان. وكانت الكلمة لهم نافذة فيهم، كذلك كانت المنطقة الساحلية في جزيرة العرب من العراق إلى اليمن تخضع لسلطانهم القوى في ذلك الحين نفسه، فلذلك إنما كسب الهنود ما كانوا يتمتعون به من مجد ونفوذ في هذه الحدود من الجزيرة بواسطة سادتهم الفرس. فقد سكن عدد كبير منهم في جزيرة العرب بعد أن انضموا إلى الاساورة جند الفرس فكانت هذه العلاقة الحاكمة مع العرب التى نالوها بواسطة الفرس مما استجلب

١٠١ و زادهم تركيزا لعنائهم على العرب بعد ما كان يقرب بعضهم إلى

الآخر من الروابط التجارية العربية المتوغلة في القدم. وأقبل الهنود يتجرون في السلع والبضائع الهندية فلزم بعضهم السفن العربية لتجارهم واختار بعضهم الإقامة في بلاد العرب فكان من نتيجة ذلك أن جزيرة العرب قد استوطنتها -أجناس هندية مختلفة في عهد بعثته صلى الله عليه وسلم دعاها سكان الجزيرة بأسماء مختلفة في لغتهم فلقد سموها مثلاً باسم الرط والاساورة والسيابجة والأحامرة والميد والبياسرة والتكاكرة وغير ذلك من الأسماء وإن تسمية السكان النازحين من بلاد باسماء وألقاب بمثل هذه الكثرة والاختلاف ينهض دليلاً واضحاً على أن عددهم كان هناك عظيماً جداً وكانت لهم شهرة وصيت وذكر في كل الأنحاء ولقد كانت آصرة الدين ووحدة الوجهة في أمر الديانة مما عاون على ربط الهنود بالعرب فلما اختلطوا بهم واصطبكوا استأنسوا بهم واصطبغوا بصبغتهم في منهج المعيشة .

كانت تلك هي الأوضاع والظروف لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة ولقى الاسلام فيها من الكفار والمشركين اضطهاداً مريعاً ومقاومة عنيفة مدة ثلاث عشرة سنة، فلم يتمكن من مجاوزة هذا النطاق الضيق طوال هذه المدة ولذلك لم يستطع سكان أقصى الحدود والجهات النائية أن يعرفوا عنه إلا قليلاً وبالطبع لم يستطع أهناد هذه الحدود أيضاً أن يطلعوا على واقع الاسلام وحقيقته كشأن مواطنيهم القح العرب غير أن عدداً من الصحابة - رضى الله عنهم - هاجروا إلى الحبشة في الحياة الملكية عهد الاسلام الأول، فكانوا سبباً في التعريف بالاسلام في الحبشة وأعمالها ويغلب على اعتقادنا أن سكان الثغور القائمة تجاه الحبشة من العرب والعجم أيضاً كانوا قد وقفوا على الاسلام وعرفوا

عنه شيئا كثيرا بما ترمى إليهم من الأنباء والاخبار عن امر هؤلاء المهاجرين في ذلك الحين . وما يؤكد ذلك أن باذان والى اليمن - رضى الله عنه - كان قد أسلم في العهد البدائي من بعثته صلى الله عليه وسلم ، وأسلم معه عدد كبير ممن كانوا حوله من الأساورة والفرس . على أنه بالرغم من ذلك لم تكن هذه المناطق قد عرفت الاسلام معرفة كاملة صحيحة عن طريق الدعوة والتبليغ بعد . وإنما حصل لهم ذلك بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة في السنة الثالثة عشرة من البعثة ، فإن الهجرة قد أثرت تأثيرا عظيما في حياة الاسلام فيها انطلقت الدعوة من نطاقها الضيق لتنتشر في آفاقها المترامية الواسعة ؛ فانها منذ يومها الأول مهدت السبيل للتعريف بالاسلام في مناطق الحدود بسبب ما تلقته من الأنباء ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب بل إن البلاد المتاخمة لجزيرة العرب تلك التي كانت تربطها بالعرب علائق قديمة - هي ايضا عرفت حادث الهجرة مما تسمته من الاخبار لهذه الواقعة الخطيرة . ولقد كانت الهند إحدى البلاد التي ترامت إليها هذه الاخبار فأثارت في سكانها بعض الاهتمام والاستشراق .

وفيما بين العام السابع والثامن الهجري بعث النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة الاسلام إلى التخوم واختار جماعة من الصحابة لتبليغ الدين والدعوة إلى التوحيد ووجههم إلى الأمراء والحكام واصحاب الشرف والوجاهة من اهالى الأقطار داخل الجزيرة وخارجها يحملون إليهم رسائله صلى الله عليه وسلم يدعوهم فيها إلى الاسلام . ومنذ ذلك الحين عرفت الدعوة طريقها من العراق إلى الثغور الشرقية واليمن ، وأخذت تنتشر

انتشارا سريعا . وعندئذ تيسر للمجوس والفرس وغيرهم من الأعاجم أن يعرفوا دعوة الاسلام تفصيلا كما تيسر للعرب أن يعرفوها وكذلك كان حال الهندوس الساكنين في هذه المناطق حيث عرفوا دعوة الاسلام عن كتب فاعتنقوا دينهم الاسلام كما فعل معظم جيرانهم وانضموا إلى المجتمع الاسلامي وتعاونوا في العمل على بناء حياة الاسلام . وأعرض الآخرون - وهم قلة قليلة - كعامة المجوس وآثروا اداء الجزية على قبول الاسلام رغبة منهم في البقاء على دينهم القديم فعدوا من المجوس .

وقد تطرق ذكر الاسلام إلى الهند أيضا كما كانت رجة لصدى صوته في الممالك الاخرى وتعلقت رغبة كثير من رجال الهند الدينيين وأمرائها وحكامها بانشاء رابطة بينهم وبين الاسلام وصاحب رسالته صلى الله عليه وسلم - مباشرة ليفهموا الاسلام وتعاليمه عن هذا الطريق فهما صحيحا . وقد تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن الهند وأهاليها لعدة مرات فتناولت طائفة من احاديثه صلى الله عليه وسلم الهند وأشياءها بالذكر والحديث . ووردت في القرآن الكريم أسماء لبعض الأشياء الهندية واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من أشياءها الطيبة وأشار على أصحابه باستعمالها ، واستحسن بعض عاداتها كما نذر بعضها وامر الصحابة باجتنابها . واشتملت ثانيا التراث الأدبي الاسلامي على ذكر كثير من أجناسها وأشياءها وتقاليدها وعاداتها وقد تعرض شعر الصحابة لذكرها مضافا ذلك إلى ما احتوى عليه القرآن الكريم والحديث النبوي .

والقد كنت مسعود الحظ إذ وفقني الله تعالى بفضل العظيم ومنه الجليل لتحضير هذه الناحية المهمة من السيرة الطيبة ، ولما أكيبت على

مطالعة الحديث ودراسة كتب السير والتاريخ للكتابة في الموضوع بعنوان
«السيرة النبوية والهنديات» انكشفت لي عجائب الحقائق الكامنة وبدائعها
وتسنت لي مادة خصبة تستحق أن تكون هامشا يضاف إلى الكنز الفياض
للسيرة العظيمة وأنه - ولاشك - لمن حسن المصادفة ان الذي خطر على
باله هذا الموضوع وشمله التوفيق الالهي فتمكن من القيام باعداد البحث -
هو ايضا من مواليد احدى بقاع (مباركپور) تلك المنطقة (اعظم كره)
التي وضع بها في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مؤلف عظيم شامل منقطع
النظير باسم «سيرة النبي» لمؤلفيه: شبلي النعماني والسيد سليمان الندوي.
ولا أشك في أن موضوعا تناوله شبلي وسليمان بالبحث والتحصيل،
إذا أراد كاتب ان يكتب فيه من جديد أو يضيف إليه بحثا أكثر قوة
ودلالة عد ذلك تطاولا وتجاوزا منه على أن هذا النوع من التطاول
والتجاوز في ميادين العلم والبحث محمود ومقبول لما فيه من نفع وجدوى
فواجب كل عالم ان يقوم حسب طاقته بعمل يذكر وخدمة تشكر ولا يلقي
نفسه في البحر الميت من الجود والهمود ويتظاهر بالوداعة والتواضع تبريرا
لمجوده وغموده.

ولا ينبغي ان يفوتني هنا ذكر تلك المحاولة في هذا الصدد التي فوه
بها العلامة ميرزا غلام علي آزاد مؤرخ الهند في تاريخ حياته: «وفي
أركان تسنى لكتاب، شامة الغبر فيما ورد في الهند من سيد البشر
«البروز من بحر الفكر إلى شاطئ القرطاس»، على أنه لم يقدر لي العشر
على هذا الكتاب رغم ما بذلت له من الجهد ولوعثرت عليه لاستفدت
منه في موضوعي استفادة عظيمة.

السند والهند في نظر العرب



قد كانت السند والهند في حساب العرب إقليمين مختلفين يقعان جهة الشرق من بلادهم عبر البحر . فالسند كانت تحدها الهند وكرمان وبلخستان وتلتها الهند التي تتاخم الصين شرقا . وأحيانا أطلق العرب « الهند » عليها معا . ولما أعاد التاريخ نفسه اتفق أن سمي القسمان من قطر « هندوستان » العظيم نفساهما - على وجه التقريب - بعد الحصول على الاستقلال باسم بهارت وباكستان ولم يزل الاسم الجامع لهما حتى اليوم « هندوستان » .

وإن ابن خرداذبة الجغرافي العربي القديم عند ما تعرض لوصف بلاد السند أحصى فيها المدن الآتية :

قيقان (كيكان قلات) ونبه (لعله يريد : نبون) ومكران وميد وقندهار (كندهارا) وقصدار وبوقان ، وقندايل ، وفنزبور ، وأرمابيل ، ودليل (تقرب من كراتشي) وقبلي ، وكنبايا (كنبائات) وسهبان ، وسدوسان ، ورأسك والردر (الور) وسادنري ، ومولتان ، وسندان (سنجان ، بمبای) ومندل وبيلمان (بهيلمان ، كجرات) وسرست ، وكيرخ ، ومرمد ، وفالي (پال جونا كلاه) وهنج (كجرات) وبروص (بهروج) .

ولم يراع ابن خرداذبة الترتيب في ذكر أسماء هذه المدن وإنما أورد الأسماء لجميع مدن السند إيرادا . وكان عامة العرب يسمون سكان

(١) هو جغرافي فارسي الأصل شغل منصب « صاحب البريد والخبر » بناحية الجبل . روى الأخبار عن أنساب الفرس وعن الملاحم والموسيقى والشراب وصناعة الطعام من مؤلفاته : « المسالك والممالك » وهو معروف عام كتعرف صفة الأرض . (ملحق المنجد) وكان هذا الكتاب نادرا . وقد التزم طبعه ونشره مكتبة المثنى ببنجاح فبرزت الحصول عليه . (٢) المسالك والممالك ص ٥٧

هذه الحدود ، السنود ، وإنما كانت السند تخضع لسلطان ملوك فارس وسطوتهم لأن حكام إقليم السند وولائه كانوا يؤدون الضرائب ويطيعونهم ، وكان هؤلاء الملوك يستقدمون الرجال من السند لتجنيدهم في الجيش كلما دعتهم الحاجة إلى ذلك . وكان أردشير ملك فارس قد خلع على حكام السند بشتى الألقاب من قله . ومن تلك الألقاب التى منحها حكام السند : « قفص شاه ، ومكران شاه ، وقيقان شاه ، وقشميران شاه ، وقد كان كل واحد من هؤلاء الحكام على انفراده بناحية يحكمها يخضع لسلطان ملك فارس ويعرف فى عمالته بلقبه الممنوح المختص به .

لقد كانت الهند التى تمتد إلى تخوم الصين مما يلي السند وفق تقسيم العرب وكذلك كانت تقع بين السند والهند نحو الساحل مدينة إسمها « قامهل ، وأعلمنا كانت توجد قرب إحدى بقاع بيكانير وجيسلمير وجونا كنده تلك التى كانت تلتقى فيها تخوم السند والهند وكتب ياقوت الحموى :

« قامهل مدينة فى أول حدود الهند ، ومن صيمور إلى قامهل من بلد السند ، ومن قامهل إلى مكران والبدده وما وراء ذلك إلى حد الملتان كلها من بلاد السند . . . وبين المنصورة وقامهل ثمان مراحل ومن قامهل إلى كنباية نحو أربع مراحل » .

وقد أراد ياقوت الحموى بما بين قامهل وصيمور (بمباى) من المنطقة كجرات التى عدها من أصقاع الهند ولم يرد بذلك تلك المنطقة الساحلية التى تشمل كوكن ، ومليبار ومعبر ، وكاه ، وشلاهط (سلهط) وقار ، ومملكة قهراج وغيرها من الكور والمخاليف .

واقدر كان الولاية والحكام في السواحل الهندية والجهات المجاورة لها يتلقبون باللقاب كثيرة ذكر ابن خرداذبة لفيفة منها وهي : بلهرا ، وجابه ، وطامن ، وملك جزر وغابه ، ورهمي ، وملك قامرون ، وملك زابج (فتحب) وميراج . وإن الحكام في الهند أيضا كانوا قد نالوا حظا مما منح ملك فارس أردشير من الألقاب الملكية . فلقد ثبت أنه منح أحد ولاية الهند لقب ملك ريجان .

وهذه المناطق الساحلية من السند والهند هي التي كانت تقوم بينها وبين جزيرة العرب الروابط والصلات على العموم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان العرب يقصدون هذه الجهات فكانوا ملهين بكثير من محصولاتها وأجناسها ورجالها إلاما صحيجا وكذلك سكان هذه الجهات أيضا كانوا يعرفون عن العرب شيئا كثيرا إما مباشرة أو عن طريق الأخبار التي كانت تخلص إليهم عن العرب .

مواصلات الهند البحرية والساحلية مع جزيرة العرب قديما

بلاد العرب - أو شبه جزيرة العرب - هضبة مستطيلة الشكل تقع في آسيا الجنوبية ، ويحدها شمالا الشام وشرقا الفرات وجزء من المحيط الهندي وغربا البحر الأحمر ، ومن جبل الين إلى بادية الشام تمتد سلسلة جبال السراة التي تنشطر بها البلاد شطرين أحدهما يعرف بالاقليم الغربي والثاني بالاقليم الشرقي . والمنطقة التي تمتد من جبال السراة على ساحل البحر الأحمر تسمى غور . والمنطقة التي تشمل تهامة وعبره والعراق الشرقي وسماوة تسمى نجد وتفصل المنطقتين إحداهما عن الأخرى المنطقة الواقعة بينهما كالبرزخ الفاصل التي تعرف بالحجاز . ثم المنطقة التي تشمل على نجد

والخليج العربى الشرقى والىحامة والبحرين وعمان تعرف بعروض . وأما ما يلى الحجاز من المنطقة التى تمتد جنوبا فتعرف باليمن .

وان سكان جزيرة العرب كانوا طبقتين فى الجملة طبقة تمثل أهل المدر وطبقة تمثل أهل الوبر . وأهل المدر هم القوم الذين كانوا يقطنون المدن والقرى وكانت وسائل الكسب وموارد الرزق متوافرة لهم فكانوا يملكون المزارع والبساتين وحدائق الفواكه والضأن والمعز والابل والمتاجر وغيرها من مختلف الحرف التى كانوا يصرفون إليها فلذا كانوا من ذوى اليسار والرخاء وعاشوا عيشة متمدية عرفت حينذاك وأما أهل الوبر فهم أهل البدو الذين كانوا يعيشون عيشة تسكع فى الصحارى الرملية الفيحاء . وكان معولهم الأكبر فى الحياة على الابل إذ أنهم كانوا فى ترحال وتنقل مستمر من جهة إلى أخرى استنجاعا للآبار والينابيع والجهات الرعوية المشوبة ويقضون أيام الحر اللاخنة صيفا فى الصحارى الرملية القاحلة دون أن يصيبهم ضيق أو يتأبهم تدمير غير أنهم فى فصل الشتاء كانوا يلتجئون إلى حدود العراق والشام أو إلى الجوانب القريبة من مدن أخرى حيث كانوا يعيشون عيشة قاسية غليظة أكثر منها فى الصحارى الرملية الحامية ضنكا ومحنة .

والهنود الذين كانوا يقطنون جزيرة العرب إنما كانوا يساكنون أهالى البلدان والقرى بوجه عام ، ويشاركونهم التجارة والصناعة وغيرها من المهن غير أن طائفة منهم كانت تعيش فى الخيام عيشة الاعراب البدو الرحل فكانت تنتقل مثلهم من جهة إلى أخرى فى طلب الماء والمرعى .

وكان أغلب السكان الأهماء يسكنون المناطق الساحلية التى كانت تقع فيما بين الشمال الشرقى والجنوب من الجزيرة وما جاورها من المرتفعات

والأنجاد . وكان فيها عدة ولاة من العرب كانوا يتولون فيها الحكم نائبين عن الفرس . كما أنها لا تزال توجد بعض إمارات ومحميات ومشيخات صغيرة مستقلة (داخليا) تحت نفوذ الانجليز في هذه الجهات إلى عصرنا الحاضر يتولى فيها الحكم الشيوخ العرب .

وإننا نريد الآن أن نتحدث عن تلك الجهات الساحلية التي كانت تسلك للمواصلات والرحلات بين جزيرة العرب والهند ليمكنا الوقوف على الطرق التي كان يتم بها السفر البحري بين القطرين في الزمن الغابر العتيق . ونستفيد في ذلك مما يحويه كتاب المسالك والممالك لابن خردادبة من تفاصيل في هذا الصدد . فهي أكثر نفعا وفائدة لأنه عول في كتابته جغرافيته على المعلومات القديمة ومعظم اعتماده في ذلك على بيان بطليموس الذي كان من مشاهير الجغرافيين الاغريق كما صرح بذلك ابن خردادبة في مقدمة كتابه .

وإن الطرق البحرية التي كانت تصل البصرة - وهي التي سميت قديما باسم «ابله» - في جهتها الشرقية بفارس والهند والصين كثيرة نذكرها تفصيلا فيما يلي :

جزيرة فارس تقع على بعد خمسين فرسخا من البصرة ومساحتها فرسخ واحد مربع وتوجد فيها بساتين العنب والتمر يشتغل أهلها بالزراعة، وعلى بعد مئائين فرسخا منها تقع جزيرة لاوان وتبلغ مساحة عمرانها فرسخين مربعين وتمتاز بمزارعها وبساتينها التي يكثر فيها النخيل . وتبعد عنها جزيرة أبرون سبعة فراسخ ويحيط عمرانها بفرسخ واحد وبها حقول زراعية وبساتين النخيل . وجزيرة خين تبعد عنها سبعة فراسخ وهي تحيط

- بنصف ميل وأرضها غير مسكونة وكذلك البعد بينها وبين جزيرة كيس سبعة فراسخ ومساحة هذه الجزيرة تبلغ أربعة فراسخ ويشغل أهلها بالزراعة وفلاحة البساتين كما يستخرجون الآلى من البحر. وجزيرة ابن كاوان منها على بعد ثمانية عشر فرسخا ومساحتها ثلاثة فراسخ وجزيرة أرموز (هرموز) تبعد عنها سبعة فراسخ. وتقع على مسيرة سبعة أيام منها ثارا. ومن البصرة إلى هذه الجزيرة يمتد التخم الفاصل بين فارس والسند وعلى مسيرة ثمانية أيام منها قامت مدينة ديبل تلك التى يصب نهر مهران (نهر السند) فى البحر على بعد فرسخين منها وعنها تقصو كولى فرسخين كذلك وتقصو عنها سندان (سندان: التى هى من أعمال بمباى) ثمانية عشر فرسخا، ثم على مسيرة خمسة عشر يوما منها تقع ملى (ملييار) وبلين تقع على مسيرة يومين منها.

ومن بلين يتفرع الطريق البحرى إلى عدة فروع. وإذا سار احد على الساحل وأتى بلين وجد باتين على مسيرة يومين منها، وسنجلى وكبشكان على مسيرة يوم منها وملتى كودا فريد على ثلاثة فراسخ منهما وأورنشين على اثنى عشر فرسخا منه، وايينة على مسيرة أربعة أيام منها.

وإذا سار أحد من بلين قاصدا سرنديب وصل إليها بعد مسيرة يوم وتليها جزيرة رامى. وإذا أراد أحد السفر إلى الصين من بلين فليغادرها بحيث يجعل سرنديب على يساره. ومن سرنديب تقع جزيرة النكبالوس على مسيرة ما يتراوح بين عشرة وخمسة عشر يوما، وتبعد عنها

جزيرة كله بقدر ستة أيام وفي شمالى هذه الجزيرة على مسيرة ستة أيام منها تقع جزيرة بالوس ، ويبعد منها كل من جابه وشلاهط وهرلنج فرسخين . لقد كان ذلك هو الطريق للمواصلات بين الغرب والشرق ذلك الذى يبدأ من البصرة (أبله) ويصل إلى الهند مارا بالجهات الساحلية لفارس . وكان الهنود فى قديم الزمان يسلكون هذا الطريق فى رحلتهم إلى البصرة وبهذا الطريق كان التجار العرب يرحلون بمتاجرهم إلى الهند والسند .

والمنطقة الساحلية الممتدة من عمان إلى البصرة تقع على الخليج العربى^٢ ، وهى التى تمتد شرقاً إلى عمان (التي هى من بلاد العرب) من ناحية ، وإلى بندر عباس (التي هى من بلاد فارس) من ناحية أخرى . وقد كتب ابن خرداذبة عن هذا الخليج انه يبلغ اتساعه سبعين فرسخاً وعمقه ما بين سبعين ومائتين باعاً . ووصف الطريق البحرى الذى يمتد من البصرة إلى عمان كما يأتى :

الطريق من البصرة إلى عبادان يمر بنهر دجلة وتقدر مسافته باثنى عشر فرسخاً وعلى بعد فرسخين من عبادان تقع خشبات ، وعلى بعد سبعين فرسخاً منها تقع البحرين التى هى من شط العرب ، وتقع در دور على مسافة مائة وخمسين فرسخاً منها . وتبعد عمان خمسين فرسخاً منها ، وشحر على بعد مائتى فرسخ منها وبينها وبين عدن مائة فرسخ وهى ميناء عظيم

(١) المسالك والممالك . اقتباس وتلخيص من ص ٦١ إلى ص ٦٩

(٢) ويسمى أحياناً الخليج الفارسى ، والبحر الفارسى وخليج المعجم

(٣) إذا صار أحد فى الخليج العربى شرقاً من البصرة انتهى به السير إلى حيث تكون حافة بلاد

العرب على يمينه وحافة فارس على يساره .

لا يشتغل سكانها بالزراعة ولا يقومون بتربية الماشية والانعام غير أنه يوجد بها العنبر والعود والمسك بكثرة كما يوجد بها الكثير من متاجر السند والهند والصين والحبشة والزنج وفارس والبصرة وجده والقلزم .

وهذا وصف تفصيلي للطريق الذي يخترق البحر من البصرة إلى عمان وغيرها من المناطق الساحلية . وقد كتب ابن خرداذبة عن الطريق الذي يخترق السهول الساحلية من البصرة إلى عمان : انه يمر على المواضع الآتية أسماؤها : البصرة وعبادان وحدوثه وعرفاج ، وزابوقه ، والمقر ، وعصى ، ومعرس ، وخليجة ، وحسان ، والقرى ، ومسيلحة ، وحصن ، وساحل ، وجر وعقير وقطر والسنجه وعمان وبها تقع مدينتا صحارودبا .

ولكنني نفهم الصلات العريقة القائمة بين العرب والهند فهما صحيحا يجب علينا أن نعرف التخوم العربية الساحلية القديمة ومساحاتها قبل الخوض في صميم البحث ، فبذلك نكون قد وقفنا على صورتها الاجمالية تلك التي تساعد فهم الصلات القديمة فنقدم إليكم نبذة عن تلك التخوم استخلصناها من كتاب الجغرافى العربى القديم أبى إسحق بن محمد الفارسى الاصطخرى «مسالك الممالك» :

«... إن بلاد العرب يحيط بها البحر الفارسى (بحر العرب) من أغلب جهاتها فتمتد حافتها من ثغر عبادان وتمر بالبحرين ومنها تصل إلى عمان ، ثم تجتاز حضرموت ، وعدن ، ثم بعد ذلك تتجه نحو سواحل اليمن إلى ان تصل إلى ثغر جده . ويتغير إتجاهها عند جاز فتصل منها إلى أيلة وعندها ينتهى جزء الحافة الذى يمتد على ساحل البحر الفارسى

(بحر العرب) فن هنا يبدأ بحر القلزم (البحر الأحمر) ويصل إلى تاران وجبيلات. والمنطقة الممتدة إلى هنا من جزيرة العرب معظمها حافة جنوبية شرقية وبعضها حافة غربية من الجزيرة ثم تمتد من أيله فتمر على ديار قوم لوط (عليه السلام) والبحيرة المنتنة ويستمر امتدادها حتى تصل إلى شرات وبلقاء اللتين هما من قرى فلسطين ثم تمر في طريقها بأذرع وحورات وبثينة وغطوة وبضواحي بعلبك التي هي من أعمال دمشق ثم بعد ذلك تمر بتدمر وسليمه اللتين هما من مساكن حصن ثم تمر بخناصره وبالس التي هي من منطقه قنسرين وإذا وصلنا إلى هذه الجهة أصبحنا بالقرب من نهر الفرات الذي يمر في طريقه إلى ملتقاه بمناطق عربية كثيرة وهي رقه ، وقرقيسا ، ورحبه ، وواليه ، وحديثه وهيئت وأنبار حتى يصل إلى الكوفة متجها نحو الملتقى. وتمتد حافتها من نواحي الكوفة والحيرة فتمر بخورنق وسواد الكوفة إلى أن تصل إلى حدود واسط حيث يقع على بعد مرحلة منه نهر دجلة ثم يستمر إمتدادها فتمر بسواد البصرة ويبطأ منحها إلى أن تصل إلى ثغر عبادان الذي قد بدأنا منه الوصف. وتلك هي التخوم التي نحد هذا القطر العربي من جهاته الأربع كما وصفه لنا ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخرى.

والبحر الفارسي (بحر العرب) يحيط من عبادان إلى أيله بثلاثة أرباع الجزيرة العربية تقريبا تلك التي تتكون منها تخوم الجزيرة الشرقية والجنوبية وبعض التخوم الغربية. والتخم الواقع فيما بين أيله وبالس يمتد

(١) بحر القلزم ويسمى أيضا البحر الأحمر ، ينفذ إلى الاثيوبانوس الهندى بمضيق باب المندب جنوبا

إلى البحر الأبيض المتوسط بركة السويس شمالا وهو مستطيل ينحصر بين افريقيا وبلاد العرب ،

لى تخوم قطر الشام. ومن بالس إلى عبادان يقع التخم الشمالى من الجزيرة، وأرض الجزيرة تمتد فى هذه الجهة من بالس إلى أنبار وفى الجزء المنحصر بين أنبار وعبادان تقع بلاد العراق، وتصل بأيله صحراء رملية ناسعة تسمى بتيه بنى إسرائيل وليست هى من بلاد العرب وإنما هى من أرض الأقباط والاغريق والعمالقة. وهى عظيمة الجفاف خالية من الماء والمرعى. وبما أن الجزيرة تسكنها قبائل ربيعة ومضر فلذلك قد يعتبرونها أحيانا من الجزيرة، غير أنها فى الأصل ليست جزرا من الجزيرة. وقد ثبت أنها للفرس والروم حيث كانت توجد لهم هناك مساكن وبلدان عامرة بالسكان الذين كانت تسكنهم قبائل عربية كثيرة اقتبسوا عاداتهم وطرق معيشتهم حتى أنهم قد تأثروا بهم فى صميم المعتقدات بفعل تأثير البيئة فدان كثير من هذه القبائل بالديانة المسيحية التى كانت ذات انتشار كبير فى تلك الجهات فكان من بين من اعتنق الاسلام فى الجزيرة بنو تغلب من قبيلة ربيعة، وفى الشام قبائل غسان وبهرا وتنوخ اليمنية

وإن أراضى الجزيرة لا يخترقها بحر ولا نهر يصلح للملاحة. وأما البحيرة المنتنة التى تعرف بزغر فهى على الرغم من متاخمتها لبادية العرب ليست من أراضى الجزيرة. وأما سد مأرب الذى كان باليمن فلم يكن عنده بحر ولا نهر وإنما أقيم ذلك السد لحجز مياه كانت هناك فى جهة منخفضة كان يستخدمها سكان تلك الجهات فى رى بساتينهم وحقولهم الزراعية. وقد نسف الله عز وجل بسبب ما وقع فيه هؤلاء القوم من العدوان والطغيان والعصيان.

وكانت المسافات بين الحدود العربية الساحلية التي كانت تقدر
بسير السفن في قديم الزمان حسب ما يأتي :

جزيرة البحرين تقصو عن عبادان بخمس عشرة مرحلة وبينها وبين
عمان مسافة تقطع بمسيرة شهر، وعلى مسافة تقع ارض مهرا، وعلى مسافة
شهر منها كذلك تقع حضرموت وعلى نفس هذه المسافة من العدو الدنيا
لحضرموت تقع عدن، والمسافة بينها وبين جده أيضا تستغرق شهرا.
ويبعد عنها ساحل جحفة بخمس مراحل ومنها تبعد جار بثلاث مراحل
ثم تمتد المسافة بينها وبين أيلة إلى عشرين مرحلة، ونفس هذه المسافة تقع
بينها وبين بالس وكذلك بينها وبين الكوفة. ثم تبلغ المسافة بينها وبين
البصرة أربع عشرة مرحلة. وعلى مسافة مرحلتين منها تقع عبادان. فذلك
هي الحدود الساحلية التي تنحصر بينها الجزيرة.

والمنطقة الواقعة بين البحرين وعبادان تمتاز بشدة وعورة مسالكها
وخلوها من الماء المرعى، فلذا يضطر المسافر في رحلته إلى أن يختار الطريق
البحري. والطريق الذي يخترق المنطقة الواقعة بين البصرة والبحرين والذي
تقدر مسافته بثمانى عشرة مرحلة تسكنه قبائل عربية وتوجد في قرى هذه
القبائل ينابيع المياه، وعلى الرغم من أن القوافل تسلك هذا الطريق لا يخلو
من المخاطر والمعاطب. وأما الطريق الذى يخرج من البحرين ليصلها بعمان
فهو أيضا يمتاز بوعورته ووعثائه فيصعب مواصلة السير فيه وليس ذلك
لوضعه الجغرافى وطوبوغرافيته الخاصة فقط بل أيضا لما فى هذه الصحراء
من بعض القبائل العربية البدوية التي يجرى فيها التقاتل والتشاحن بصفة

دائمة . وكذلك الطريق الذى يمتد من عمان للمواصلات بينها وبين جده .
يصادف السائر فيه صعوبة كبيرة ومشقة عظيمة إذ أنه يخترق صحراء رملية
قاحلة تكاد تكون عديمة العمران والسكان ومن أجل ذلك ترى أن المسافر
يؤثر عليه الطريق البحرى فى سفره إلى جده ، وأما إذا بدئ السير على
الساحل زاد الطريق الممتد من مهر وحضرموت إلى عدن - طولا . وهذا
هو السبب فى أن الناس هنا لا يختارون السفر من الطرق البرية إلا نادرا .
وبهذه النظرة الاجمالية أمكننا الوقوف على كثير من مناطق بلاد
العرب الساحلية وغيرها من البلاد المجاورة لها وعلى أوضاع الطرق ومسافاتها
كما وصفها لنا الاصطخري ، وتلك هى المناطق التى كانت الأقوام الهندية
تشد إليها الرحال وتجوبها من أقصاها إلى أقصاها فى الزمن الغابر كما
سنفصلها فى حديثنا التالى :

وهؤلاء الأهلاد الذين كانوا قد اندمجوا على العموم فى تلك البيئات
العربية التى كانت تقع فى أقاصى الجزيرة وأطرافها النائية ، والذين كانوا
يفدون إليها من حين لآخر - قد وصلت إليهم الدعوة الإسلامية لما
استعمل أمرها واستتب لها الجو وعم ذكرها أرجاء البلاد المتقاصية المتناحية .
والسواحل العربية تقع محاذية للسواحل الهندية وقد وهب الله سبحانه
وتعالى لكل منهما من الرواق والبهاء حظا . وأفرا يكون منظرا طبيعيا جميلا
خلابا . فأنك تجد السواحل الهندية غنية بغابات أشجار النارجيل الفيحاء
على حين أنك تجد السواحل العربية مكسوة بروضات أشجار النخيل الغناء .
والجوز الهندى له شهرة فى بلاد النخيل العربية كما أن التمر العربى له
شهرة فى بلاد النارجيل الهندية وكلاهما يكونان جزءا من المواد الغذائية

لأهالي القطرين الشقيقين ، وإذن فهما يتصلان أيضا بصلات طبيعية فضلا عن الصلات التجارية القديمة .

جاليات هندية

(الزط . الميّد . السيابجة . الأحامرة . الأساورة . البياسرة . التكاكرة)

إن السند والهند قد اعتبرهما العرب إقليمين مستقلين منفصلين بعضهما عن الآخر بيد أنهم أطلقوا أحيانا على سكان إقليمين «هندي» على وجه التغليب وأما في الأكثر الغالب فهم كانوا يطلقون على أهل السند «سندی» وعلى أهل الهند «هندي» .

وكلمة السند كما أنها تطلق على البلاد كذلك تطلق على الجبل الذي يقطنها وتجمع على «السنود» و «الأسناد» كالهنود والأهنداد، وتضاف إليها ياء النسبة للأفراد فيقال للواحد : سندی . وفي لسان العرب :

«والسند جبل معروف والجمع أسناد وسنود . وسند بلاد . تقول : سندی للواحد وسند للجماعة مثل زنجي وزنج» .^١

ولقد اشتهرت السند قديما بصناعة نوع من المنسوجات باسم : مسندة وسندية وسند تلك التي كان لها رواج واستهلاك في بلاد العرب . وكما أن الرجل السندی إنما كان يعرف بنسبته إلى السند كذلك كان الثوب والدجاج يشتهران بنسبتها إلى بلاد السند فيقولون ثوب سندی ، ودجاج سندی . وكان الأسناد في قديم الزمان يسكنون الجزيرة العربية بعدد كبير وكانت لهم بالأخص في اليمن شركة ونفوذ عظيم . وفي عهد طفولته صلى الله عليه وسلم لما قام مسروق بن أبرهة ملك الحبشة بهجوم حاسم على

اليمن وانتزع ولاية الامر من يد سيف بن ذى يزن وعزله ، التجأ إلى كسرى أنوشيروان وأخبره بان الغرباء إستولوا على اليمن فسأل : أى الأغبية الحبشة أم السند ؟

وفى سوال كسرى هذا دليل على ما كان لهم باليمن وقتذاك من عدد كبير ونفوذ عظيم .

وكما أن لفظة الهند اسم لاقليم بازاء السند كذلك دعا العرب سكان الاقليم بهذا الاسم فللمجمع يستعملون «الهنود» وللواحد «الهندي» ، باضافة ياء النسبة وقد يضيفون إليها الكاف قبل الياء فيقولون «الهنديكى» ، ثم يجمعونها على هنالك . وقد يكون مرادهم بالهندي العود الهندي خاصة . وكانت الهند تشتهر بصناعة السيوف عند العرب وقد استرعت السيوف الهندية كبير اهتمامهم وذالت منهم الاعجاب فكثيرا ماجرى ذكرها على ألسنتهم وكانوا يصفونها بالهندية . وقد تنوعت وجوه هذا النعت لكثرة استعمالهم فاحيانا قالوا : سيف مهند وأخرى سيف هندي وتارة سيف هندوانى - بضم الهاء وكسر ها - وحينما اكتفوا بالهندي . وفى لسان العرب :

قال الأزهري : والأصل فى التهنيذ عمل الهند ، يقال سيف مهند وهندي وهندوانى إذا عمل ببلاد الهند وأحكم عمله . والمهند السيوف المطبوع من حديد الهند ، وهند اسم بلاد ، والنسبة هندي والجمع هنود كقولك زنجى وزنوج وسيف هندوانى بكسر الهاء وإن شئت ضمنتها اتباعا للدال . ابن سيده : والهند جيل معروف ويقال رجل هندي وهنديكى قال : ولو قيل إن الكاف

أصل وإن هندی وهندي أصلان بمنزلة سبط وسبطر لكان قولاً قويا .
والسيف الهندواني والمهند منسوب إليهم .

ولأبي طالب قصيدة قرضا في رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإليك
أحد أبياتهما :

بنى أمة - محبوبة هندكية بنى جمع عبيد قيس بن عاقل

وقال كثير بن عبد الرحمن :

ومقربة دم وكمت كأنها طماطم يوفون الوفور هنادكا

وفي شرح هذا البيت يقول محمد بن حبيب : ان الكثير إنما أراد
بهنادك رجال الهند .

وقال ابن هرمة :

كأعناق نساء الهند وقد شيت بأوضح

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم رجال الهند قبل وفاته بيضعة
شهور حينما قدم خالد بن الوليد من نجران عليه صلى الله عليه وسلم ومعه
وفد بنى الحارث بن كعب ، فلما وصلوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم
ورآهم قال :

«من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند» .

(١) لسان العرب ج ٢/ص ١٢٨

(٢) سيرة ابن هشام - ج ١/ص ٣٧٠ - الطبعة الثانية - طبع بمصر

(٣) لسان العرب ج ٢/ص ١٢٨

(٤) سيرة ابن هشام - ج ٢/ص ٣٧٠

والخلاصة أن جزيرة العرب كانت تسكنها جاليات مختلفة من الهنود والسنود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالزط ، والميد ، والسيابجة ، والأساورة والأحامرة ، والبياسرة والتكاكرة كل هذه الجاليات كانت تسكن الجزيرة العربية وتدعى بأسماء مختلفة حسب تلك الأعمال المختلفة التي كانت قد احترفت بها هناك .

ونود أن نعرفكم فيما يلي بهذه الجاليات على وجه الإجمال :

الزط : (جاث) جالية هندية من السود المحاربين الذين يشتهرون بشجاعتهم وجلادتهم وقوة بأسهم ، وكانت تمتد من ضواحي منطقة المصورة إلى مكران ، وكان مسكنها الأصلي بلوخستان ومنطقة بنجاب من بلاد الهند فانتزحوا عنها إلى جزيرة العرب .

الميد : جالية هندية ساحلية كانت تغير على السفن وتنهبها في البحار وكانت مساكنها تمتد من حوض نهر السند إلى منطقة اوتكين إحدى تخوم الهند ومن المناطق الساحلية الواقعة على حوض نهر السند إلى ملتان كما كانت توجد لقطاع الطرق المائية هؤلاء ملاجئ وأوكار في سواحل كجرات وكوكن بكثرة وكان الحكام والملوك الهنود ضاقوا بهم ذرعا ولم يستطيعوا أن ينالوا منهم شيئا وقد أخضعهم المسلمون بعد . وكانوا يتجندون في عسكر ملوك فارس ويرحلون إلى بلاد العرب ويسكنون هناك المناطق الساحلية .

السيابجة : هذه الجالية الهندية أيضا كانت من قطان السند والمناطق الساحلية للهند وبخاصة كانت منطقة السند مركزا لهم .

الأحامرة : قوم كانوا هم أيضا من قطان المناطق الساحلية الهندية ولاسيما السند وكانوا يسافرون إلى بلاد العرب ويقومون بخدمة حراسة السفن

التجارية لقاء أجور كانوا يحصلون عليها من ملاك السفن، كما كانوا يقومون بالمقاومة والحرب ضد قطاع الطرق البحرية.

الاساورة: هم طائفة من ضباط فرقة الفرسان (فرقة السوارى) في جيش ملوك إيران وكانت لهم - وبالأصح لاكثرهم - رتب عالية في الجيش الايرانى وكانوا يقيمون ببلاد العرب. وكان عدد منهم من الهنود الذين كانت أوطانهم تمتد من سواحل السند إلى سرانديب.

البياسرة: قوم من الهنود كانوا يقومون بالرحيل إلى بلاد العرب ويتوظفون في السفن التي كانوا يتولون حراستها وكانت قراهم ومواطنهم منبثة من سواحل السند إلى صيمور وما جاورها من حدود بمباى.

التكاكرة: (نماكر) هؤلاء كانوا من أبطال السند والبنجاب وشجعانها الذين كانوا قد أبدوا بسالة نادرة في مناصرة داهر وغيره من ملوك الهند ضد الفاتح الغازى محمد بن قاسم.

وهذه بعض الاجناس الهندية التي كانت ترحل من مختلف بقاع الهند إلى جزيرة العرب وكانت بعضها قد استوطنتها. كما كان يوجد لفيف من الهنود في الجزيرة العربية الذين كانوا قد انتزحوا إليها من أصقاع الهند الأخرى.

ونود الآن أن نذكر تلك الاجناس والطوائف الهندية التي كانت تقطن مختلف أنحاء الجزيرة العربية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الطوائف التي كانت بعضها قد أسلمت حين وصلت إليها الدعوة الاسلامية وقبلت بعضها الجزية كما حاربت بعضها بالانضمام إلى الفرس والعرب وسنفيض الكلام على هذا المبحث نوعاً.

الزط (جاٹ)

هؤلاء قوم من الملونين السود استوطنوا جزيرة العرب منذ قديم الزمان بعدد كبير وكانوا سلالة هندية الاصل التي مركزها السند والبنجاب وقد اعتبر بعض المؤرخين سكان بلوختان أيضا من الزط. وفي لسان العرب :

«الزط جيل أسود من السند وقيل الزط اعراب جت بالهندية وهو جيل من أهل الهند وهم جنس من السود ان والهنود والواحد زطى مثل الزنج والزنجى والروم والرومى».

ويقول العلامة محمد طاهر الكجراتي في مجمع بحار الأنوار : «وهم جنس من السودان (السنود) والهنود».

وقد كتب طريح النجفي في مجمع البحرين ما يقرب من ذلك، يقول : «الزط، بالضم من الهند معرب جهت بالفتح الواحد الزطى»^٣. ويستبين من هذه النصوص الصريحة أن الزط إنما كانوا من السنود والهنود. ولكن أبا الفداء يقول في تقويم البلدان أن البلوختين يعرفون في زماننا بالجت ولغتهم تشبه اللغة الهندية :

«وأما البلوص المذكورون فيقال لهم في زماننا الجت وهم طائفة تقرب لغتهم من الهندية»^٤.

إن انساب الماهر والخبير القديم يتاريخ اليمن أبا محمد عبد الملك ابن هشام قد ذكر الزط وقال إنهم من أقوام آسيا الوسطى وعددهم من

(١) لسان العرب ج ٧، ص ٢٠٨ (٢) مجمع البحار - ج ٢/ص ٦٢ (٣) مجمع البحرين - طبع بباريس

(٤) تقويم البلدان - ص ٣٢٥ - المطبوع بباريس -

بنى يافث أثناء تعرضه لذكر القبيلتين اليمينيتين التبع والتابعة، فهو يقول مثلا في الحديث عن تبع شمير عرش بن ناسر النعم:

«وان الصغد والمكرد والخزر والزط والقوط كلهم بنو يافث ير

نوح النبي صلى الله عليه وسلم»^١.

ويقول في نفس الحديث بعد أن يمضى قليلا:

«وأقبل بنو يافث بأجمعهم يناصرون قباد، وهم الترك والديلا

والخزر والغور والتبت والصغد والزط والخوز»^٢.

ويخيل إلى أن الأسماء المذكورة ليست تفصيلا لبنى يافث فقه وإنما هي تفصيل لمجموع أولئك المقاتلين الذين تضامنوا في مناصرة الملل الايراني العظيم قباد ضد خصامه تبع شمير عرش. وذلك المجموع لم يمه مقصورا على بنى يافث وإنما كان يتكون من عدة قبائل وأجيال. فكا أحد هذه الأجيال المناصرة الزط الذين كانوا قد هاجروا الهند واستوطنوا أنحاء بلاد إيران منذ قديم الزمان. وانضم معظمهم إلى جيش اكاسه ايران وكان الزط من سلالة هندية الأصل وإذن فليست آسيا الوسطى مهدم الأصلي وإنما كانوا قد انتزحوا إليها ليعيشوا في تلك الجهات ولا فمن السائغ أن يكون هناك جيل آخر عاش في تلك الجهات بنفس هذا الاسم إن الزط الذين أثبت وجودهم المورخون في الجزيرة العربية كما من سكان بلوختان، وملتان، ودبيل، والسند وما جاورها من الضواحي وكتب ابن خرداذبة الجغرافي أن منطقة بلاد الزط التي تمتد من مكر إلى المنصورة (السند) تربو مساحتها على مئات من الأميال حيث قال

(١) كتاب البيان - ص ٢٢٢ - المطبع بجنرآباد - (٢) المرجع السابق ص ٢٢٢.

الوصف لطريق يمتد من ايران إلى السند : « من أول مكران إلى المنصورة
ثلاث مائة وثمانية وخمسين فرسخا ، والطريق في بلاد الزط وهم حفاظ الطريق .
وكتب الاصطخرى أن المنطقة الممتدة من المنصورة (السند) إلى
مولتان كلها إقليم الزط الذين تقوم لهم فيه مساكن وقرى :

« وبلد السند هو المنصورة وأراضي الزط وما والاها إلى الملتان » .

وقد صرح ابو الفداء - كما قدمنا - بأن اهالى بلوخرستان يعرفون
بالجت ولغتهم قريبة من اللغة الهندية . وبهذه النصوص والتصريحات يتبين
لنا أن الزط (الجت) الذين كانوا قد استوطنوا بلاد العرب إنما كانوا
من حدود السند وكانت بلادهم منبثة في المنطقة الممتدة من مكران إلى بنجاب .
وكان لرحيل زط الهند إلى بلاد العرب عوامل ودوافع مختلفة
فكان منهم من سكن المناطق الساحلية الممتدة من أيله (البصرة) إلى عمان
والبحرين واشتغلوا بتربية الماشية والمعز والضأن والابل وكان منهم من
استوطنوا المدن والقرى الساحلية دائما ومعظمهم كانوا يتجندون في الجيش
الايراني فيعيشون في إيران والجزيرة العربية . وكان اليمن مركزا للجيش
الايراني في الجنوب وأبله في العراق . فلقد وجدت في ايران بلاد كبيرة
وقرى جميلة لهؤلاء الزط منذ سالف الزمان . وكانت بلادهم تمتد من فارس
إلى العراق فعلى بعد ستين ميلا من الطريق الذي يصل الأهواز بفارس -
كانت تقع مدينة عظيمة لهؤلاء الزط . وقد سميت باسمهم « الزط » ويقول
ابن خردادبة :

(١) المسالك والممالك - ص ١٢ - المطبوع . (٢) المسالك والممالك ص ٣٥ . (٣) الأهواز : من

إقليم الدولة العباسية يسمى اليوم «بلاد خوزستان» وهو في إيران وفيه مدينة عبادان . منطقة غنية بأبار النفط .

«من الأهواز إلى ازم ستة فراسخ ومنها عشرين خمسة فراسخ ثم إلى رامهرمز ستة فراسخ ثم إلى الزط ستة فراسخ»^١.

وكانت تتخلل منطقة خوزستان مدينة نخمة عظيمة للزط تلك التي انقسمت إلى الجزئين وقد عرف كل منهما باسم خاص به فقد عرف أحدهما بحومة الزط والآخر بالخابران وكانت كل واحدة من المنطقتين فسيحة مترامية الأطراف كما كانتا تقعان على حافى النهرين . ويقول الاصطخري أثناء ذكره لكثير من البلدان والمكور العامرة العظيمة :

«وحومة الزط والخابران وهما واحد ، والزط والخابران هما كورتان عامرتان على نهرين جاريتين»^٢.

وأضف ذلك كله إلى ما كان للزط من مساكن وأقطان في كابل وفيهم ولد فيما بعد الامام الأعظم أبوحنيفة النعمان بن ثابت الزوطى بن ماه - طيب الله ثراه - ولعل ثابتا الزوطى بن ماه كاسمه النعمان . وماه كان مرزباناً لملك إيران ولذا فقد جاء فى بعض الروايات النعمان بن مرزبان مكان الزوطى بن ماه .

وكتب المؤرخ البلاذرى فى «فتوح البلدان» عن تاريخ قدوم الزط الهنود إلى جزيرة العرب بواسطة الفرس واستيطانهم اياها بعنوان «أمر الاساورة والزط» :

وأما السياجة والزط والاندغار فانهم كانوا فى جند الفرس بمن سبوه وفرضوا له من أهل السند ومن كان سبياً من أولى الغزاة فلما سمعوا

(١) المسالك والممالك ص ٤٣ . (٢) المسالك والممالك - ص ٩٤ . (٣) تاريخ ابن خلكان - جلد

٢/ص ٢٩٩ - الطبع بباريس .

بما كان من أمر الأساورة اسلوا وأتوا أبا موسى فأنزلهم البصرة كما انزل
الأساورة^١.

وقد أورد البلاذري العبارة السالفة بعد أن بين وقعة إسلام
الجنود الفرس «الأساورة»، وبهذا الصدد ذكر إسلام شيروية اسواري
واستيطانه البصرة كما يأتي.

«فانضم إلى الأساورة السياجة وكانوا قبل الإسلام بالسواحل
وكذلك الزط وكانوا بالطفوف يتتبعون الكلاء^٢».

وفي موضع آخر يكتب العلامة البلاذري في المبحث نفسه :
«وقد كان معاوية نقل من الزط والسياجة القدماء إلى سواحل
الشام وانطاكية بشراً^٣».

والخلاصة أن التصاريح والنصوص السابقة إن دلت على شيء فإنما
تدل على أن الزط كانوا في جيش الفرس منذ غابر الزمان على أن الامتياز
بين الجند الفرس والجند السنود (الزط) كان جلياً ملحوظاً في المكائنة .
فلم يكن الجند الزط يتمتعون بما كان يتمتع به الجند الفرس من المنزلة
والرتبة كما كان المستوى لمرتباتهم أحط منه لمرتبات الفرس وكان هؤلاء
الزط الهنود قبل الإسلام يسكنون سواحل الخليج الفارسي تلك الرغوية
الخصيبة التي كانت تمتد من أيله إلى البحرين وعمان . ومدينة ابلة التي
عمرت بالقرب منها مدينة «البصرة» فيما بعد . كانت مركزاً كبيراً لهم
فلما دخلوا في الإسلام بعد ، نقل عدد كبير منهم إلى سواحل الشام
وانطاكيا فازدادت بهم تلك الجهات عمراناً وازدهاراً .

(١) فتح البلدان ص ٣٦٨ . (٢) المرجع السابق - ص ٣٠٧ . (٣) تلوح البلدان - ص ٣٦٩ .

وكان مركزهم الثاني البحرين التي كان يقطنها عدد كبير لهم من قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بزمان . فلما استعرت فتنة الارتداد في البحرين وأعمالها سنة ١١ هـ كان الزط ممن وقعوا فيها وكان السبب في وقوع معظمهم في هذه الفتنة يرجع إلى حطم بن ضبيعة الذي سعى جهده في تضليل أولئك الزط الذين كانوا يعيشون في القطيف وهجر والحظ فخرهم ضد الاسلام واستغواهم أى استغوا . فقد ورد في الطبرى .

« حتى نزل القطيف وهجر واستغوى الحظ ومن فيها من الزط والسيابجة » .

فلما انكسر الجمع الخليل من هؤلاء المرتدين وانهمزوا في الحرب مع المسلمين فرت جماعة منهم هاربة جهة الدارين ، والبقية الباقية أيضا التجأت بالفرار إلى أوطانهم وأقطانهم وقبائلهم الأصلية فن هنا تستنتج أن الزط الأهداد بعد انهزامهم في تلك الحرب كانوا قد رجعوا هاربين إلى الهند .

وأیضا كان الزط يسكنون مكة المكرمة وإن أهاليها كانوا يعرفونهم عن كذب . وقد ورد في الترمذی بأبواب الأمثال حديث طويل ينطوى على أن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بطحاء مكة حيث رأى معشر الجن الذين كانوا أقرب الناس إلى الزط في الشبه كما وصفه ابن مسعود - رضى الله عنه - وإليك جزء من هذا الحديث :

... فبينما أنا جالس في خطي اذ أتاني رجال كأنهم الزط أشعارهم
واجسامهم لا أرى عورة ولا أرى قشرا^١.

وكان الزط يسكنون المدينة المنورة منذ زمن قديم وكان أحدهم
طبيباً يعالج المرضى وهو الذي كان قد وصف لعائشة - رضى الله عنها -
أنها أصيبت بالسحر الذي تولته جاريتها^٢.

وقصارى القول أن الزط لم يكن سكانهم مقصوراً في السواحل
الشرقية، فقد كان يوجد لهم عدد لا بأس به في معظم المدن العربية المركزية
ذات الحيوية وأخذت بعض عاداتهم ومنتوجاتهم المقبولة سيلاً إلى العرب
فنالت الرواج واشهرت فيهم فنما أن الزط كانوا يخلقون رؤوسهم على
طريقة خاصة تعرف به دقلى، وقد أعجب بعض العرب بهذه الطريقة
فاستخدموها بين حين وآخر. وفي لسان العرب ومجمع البحار:

«وفي بعض الأخبار: خلق رأسه زطية (أى على طريقة زطية)
قيل هو مثل الصليب كأنه فعل الزط^٣».

إن النص السابق غير ضريح في من هو الذى خلق رأسه زطية.
هل الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى خلق رأسه زطية أم أحد
أصحابه. غير أن ظاهر اللفظ يدل على أن ذلك إنما يتعلق بالنبي صلى الله
عليه وسلم.

وقد كان هناك نوع من الثياب يشتهر في العرب بعزيتة إلى الزط
كما في لسان العرب:

(١) تاريخ الطبرى ج ٢/ص ٢٥٦ - الترمذى - أبواب الأمثال - (٢) الإصحاح المفرد للامام البخارى -

ص ٣٧ طبع بمصر. (٣) لسان العرب ج ٧/ص ٣٠٨ ومجمع البحار ج ٢/ص ٦٢

والزط جيل أسود من السند إليهم تنسب الثياب الزطية^١.

وهذه العبارة كذلك لا تؤدي إلى القطع بأن الثياب الزطية هل كانت صنفا خاصا من المنسوجات يقوم الزط بإنتاجه فيبيعونه في الأسواق والمحطات التجارية العربية أو إنما كانت عبارة عن أزيائهم القبلية الخاصة. وما يغلب على ظننا أن بعض المزامير والمعارف للطرب والنعم، والموسيقى الهندية. كان لها رواج منذ عهد قديم في العرب الذين كانوا يطربون ويتمتعون بها في مختلف المناسبات وإنما كانوا قد اطلعوا عليها عن طريق الزط النازحين المواطنين لهم. ونحن لا نجد في العصر الحاضر ما فوقه برهانا ساطعا على ذلك لتدعيمه، غير أننا نجد في كتاب الحيوان ما يمكننا الاستناد إليه نوعا حيث أن الجاحظ نقل فيه رجلا شبه فيه الشاعر نغمة البعوضة بنغمة الزط. وإليك هذا المصراع من ذلك الرجز: «إذ تغنين غناء الزط، (الخطاب فيه للبعوضة) ومن ذلك يستبين أن الزط كانوا يشتهرون بنغمتهم الرخيمة في المجتمع العربي.

ولأنه كما يثبت لنا مما سبق أن كثيرا من العادات والسجايا الزطية كانت معروفة عند العرب مشمولة بالاهتمام منهم كذلك يثبت أن هؤلاء الزط الهنود كانت لهم حرية كاملة في التمسك بما كان لهم من الروايات والميزات والسجايا القومية ولم تفرض عليهم الحياة العربية فرضا يجعلهم يضطرون إلى النسيان أو الهجران لحياتهم تلك المميزة الفريدة بل إن حياتهم تلك هي التي أثرت على الحياة العربية إلى حد ما. وهناك روايات أخرى

تحدثنا أن الزط قد احتفظوا بلغتهم إلى عهد الخلافة الراشدة فلم يگونوا يتكلمون إلا بلغتهم الوطنية في مجمع البحرين ما يؤيد ذلك :

« وفي حديث على أنه لما فرغ من قتال أهل البصرة أتاه سبعون رجلا من الزط فكلموه بلسانهم فقالوا : لغنهم (أهل البصرة) الله بل أنت أنت . »

وبما سبق نفهم أن زط البصرة قد حافظوا على لغتهم الوطنية الهندية ، حتى عهد خلافة على رضى الله عنه ولم يگونوا ينطقون إلا بلغتهم كما أنهم قد أقروا بخلافة على رضى الله عنه . ولعل ذلك هو السبب في أن تلك الجهات التي كانوا يسكنونها ولاسيما البحرين قد اختلطت فيها اللغة العربية بلغتهم الهندية فتأثرت بها وتفاعلت تفاعلا افقدها فصاحة واعتبارا . فلم يكن العرب يقيمون وزنا للعربية التي كانت تتداولها قبيلة بنى عبد القيس وقبيلة ازدعمان الذين كانوا يقطنون البحرين حيث اختلطوا بالفرس والهنود اختلاطا لم يكن لهم منه مناص . وقد أسفر تفاعل اللغتين عن نتيجة طبيعية وهي أن لهجتهم فقدت ما للعربية الفصحى من جوهر واصالة ولم تكن حال سكان اليمن أحسن من أولئك بالنسبة إلى العربية لما كان بهم من اتصال واختلاط بالأجانب .

كان المسلمون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - على معرفة تامة بالزط فقد كان هؤلاء معروفين عندهم بلون بشرتهم وهيكلمهم وشارتهم وزيمهم وقد دل على ذلك ما أسلفناه من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه التي شبه فيها مخلوقا بالزط ، وأهم ما احتوى عليه تشبيهه هو التصريح بطول أعمارهم وضم أجسامهم على وجه الخصوص .

وما يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه قد شبه أخاه النبي موسى عليه السلام برجال الزط - في ضخامة الجسم - في حديث له . وورد في مجمع البحرين في مادة « زط » :

« وأما موحي فأدم سبط كانه من رجال الزط ، هو بضم الزاي وشدة المهملة . »

وقد تقدم كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه وفد بني الحارث بن كعب من نجران سنة ١٠ هـ فقال فيهم حينما وقع عليهم نظره :
« من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند . »

وإن الزط على احتفاظهم بشخصيتهم لم يكونوا بمعزل عن المجتمع العربي بل إنهم على نقيض ذلك كانوا قد اندمجوا في البيئة العربية بحيث شكلوا جزءا منها - إن صح التعبير - فكانوا يتضامنون مع العرب في جميع الأمور والقضايا الاجتماعية وقد يتحالفون مع مختلف القبائل فيظهرون لهم من الولاء مثل ما يبدیه الحليف العربي لحليفه العربي كما سبق من أن زط القطيف وهجر والحظ وغيرها من الجهات الساحلية كانوا قد خرجوا متآزرين مع حطم بن ضبيعة وغيره من أهل الردة والكفر للقتال ضد جيش الصديق الأكبر في حرب اليمامة . ويظهرون أن السيوف الهندية التي كانت مع مسيلة الكذاب في الحرب لم يظفر بها إلا عن طريق زط نجران ونجد على أغلب الظن .

ثم إن هؤلاء القوم قد أصبحوا حلفاء لبني عبد القيس وهي قبيلة عربية مشهورة من البحرين . ويقول عويم بن عبد الله ملمعا إلى ما بين الزط وبني عبد القيس من عهد وحلف :

ويغنى الزط عبد القيس عنا وتكفيننا الأساورة المزونا
وكذلك كانوا حلفاء لقبيلة بنى تميم العربية المشهورة وكانوا يناصرونهم
في حروبهم القبلية . كما يشير إليه قول الشاعر :

جئنا مجيى وائل وبلغها وجاءت تميم زطها والأساور^١

وقد ظل سلوكهم هذا قائما كذلك حتى في عهد الاسلام ، فقد
كانوا يتحالفون مع قبيلة يختارونها من بين القبائل فلم يشتركوا في غزوات
الاسلام إلا ومعهم قبيلة بينها وبينهم علاقة التحالف والصداقة . وبعد
سنة ١٤ هـ عاش زط البصرة والسيابجة مع بنى حنظلة ومعهم كانوا يخرجون
لجهاد المشركين . والجدير بالذكر هنا أن موقف الزط تجاه المسلمين وغيرهم
من العرب إنما كان حياديا في أكثر الاحايين إلى زمن . وقد ظلموا متمسكين
بالحيادية إلى ما أمكنهم ذلك وعملا بسياستهم الحيادية هذه كانوا يسعون
جهدهم لاقصاء نفوسهم عن التدخل في تلك الأمور الداخلية التي كانت
مشتركة بين المسلمين وغيرهم من العرب والتي كانت قد تتأزم بين آوة
وأخرى . وأما ما بدر من الزط البحرين من الخروج للقتال ضد المسلمين
على عهد الصديق - رضى الله عنه - فانما كان ذلك بفعل النفوذ والضعف
الذى استخدمه حطم بن ضبيعة ولكنهم لما أسلموا اتبعوا سياستهم تلك
الحيادية وثبتوا عليها فلم يتدخلوا فيما كان بين المسلمين من الأمور الداخلية
المشتركة ، كما أثبت ذلك البلاذرى :

٢
« ولم يشهدوا معهم الجمل وصفين ولا شيئا من حروبهم » .

إن زط البصرة المسلمين طلب إليهم أن لا يتدخلوا في شئ
العرب الداخلية الخاصة ولا يناصروا جماعة دون أخرى . فعملوا بذلك

مدة غير أنهم قد اضطروا فيما بعد بحكم الظروف إلى الانضمام إلى إحدى الجماعات فقد شهدوا بعد وقعتي الجمل والصفين اليوم المسعود، ويوم الزبدية. ولما خرج عبد الرحمن بن أشعث مع جماعة من القراء على خلافة بني أمية كان الزط والسيابجة ممن انضموا إليهم وشاركوهم في أعمالهم الثورية. فلما علم الحجاج بن يوسف بذلك دمر بيوتهم عقابا لهم على نكشهم العهد، وألقى وظائفهم المالية وأجلاهم عن الوطن فتشتت كلمتهم وتفرقت جمعيتهم إلا أنهم أصرفوا نار الثورة ضد الحكومة في نواحي البصرة وبغداد وقاموا بأعمال هدامة أخذوا لتأرهم.

وإننا لم نعثر على أي وثيقة تثبت لنا إسلام عامة الزط على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أو إسلام جماعة منهم. غير أن المقطوع به هو أن بعض الزط من حدود اليمن والبحرين كانوا قد أسلموا في عهده صلى الله عليه وسلم فانما كان بيرزطن الهندي الذي أسلم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - من سلالة زطية ثم لما عمرت مدينة البصرة سنة ١٤ هـ على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان هناك عدد كبير من الزط المسلمين الذين كانوا حلفاء لبني حنظلة ولما أسلم أساورة إيران على يد أبي موسى الأشعري رضى الله عنه حلوا في البصرة بجوار هؤلاء الزط والسيابجة المسلمين وأخذوا يعيشون معهم غير أن الايرانيين والهنود المسلمين لما تكاثروا عددهم أمالتهم بنو تميم إليهم فتحالفوا معهم في حين أن الأساورة انضموا إلى بني سعد واضحوا حلفاءهم كما أن الزط والسيابجة أصبحوا حلفاء لبني حنظلة.

ثم إن حجاج بن يوسف الثقفي استقدم من السند الزط والاقوام الآخرين فلما قدموا مع بنيتهم وأزواجهم عمر بهم الجهة الصخرية المنخفضة

من مدينة كسكر التي كانت تقع على ساحل دجلة ولم تمض إلا مدة يسيرة حتى اجتمعت لهم هناك قوة لا يستهان بها وبينهم كذلك اتفق أن كثيرا من العبيد وموالي بني باهلة ورجال من اخوال محمد بن سليمان - فروا ولجأوا إلى هذا الموضع وأقبلوا يقومون بأعمال النهب والسلب والارهاب مجاهرين بعصيان الحكومة فلما رأى الزط ما قام به هؤلاء اللاجئون من نشاطهم الهدام شعروا بزيادة قوتهم ووجدوا فيهم بغيتهم إذ كانوا يمارسون عملية النهب والاغارة على السفن قديما . فاجترأوا بدورهم على الحكومة . وإن تكتل قواهم أكسبهم من البأس والغلبة ما أمكنهم من الاستيلاء على جميع المنطقة المنخفضة من البصرة على عهد الخليفة المأمون فكانوا يغيرون على كل سفينة تمر بالبصرة في طريقها إلى بغداد ويأخذون كل ما في السفينة غصبا . وعجزت الحكومة عن كبح جماعتهم فتعطلت طرق النقل والمواصلات المائتة مدة طويلة حتى قام الخليفة المعتصم باتخاذ الاجراءات العسكرية الصارمة ضد هؤلاء الزط إذ بعث إليهم فرقة من الجند بامارة ضابط عسكري اسمه عجيف (بن عنبسة) ومنحه صلاحيات واسعة في سبيل القيام بمهمته من قمع طغيانهم واستيصال شافته لخاربهم عجيف حربا عنيفة وكسرم ووصل بهم أسارى إلى بغداد فتقل معظمهم إلى عين زرية كما نقل بعضهم إلى خانقين .

ويقول ابن الأثير إن الحظ التي هي جزء من البحرين كان يسكنها الزط والسيابجة . وجهز المأمون الجند لمحاربتهم بامارة عيسى بن يزيد الجلودي ثم بامارة داؤد بن ماسحور سنة ٢٠٦ هـ فلم تصبهم الهزيمة إلا في سنة ٢١٩ هـ حينما حاربهم عجيف بن عنبسة حتى كسرم وأصابهم بهزيمة نكراء

وقد كتب المسعودي في كتاب التنبيه والاشراف أن عددا كبيرا من السفن الهندية القى عليه القبض على عهد المعتصم وكانت فيها جماعة من القوم الذين كانوا مسيطرين على الجهات المجاورة لسواحل فارس وعمان والبصرة، فاستأصل المعتصم شأمة أولئك الزط الذين كانوا يقومون في الجهة المنخفضة من البصرة والمنطقة الممتدة من البصرة إلى واسط - بأعمال إجرامية من تهب الأموال وقتل الأرواح وسفك الدماء. وكانوا هاجروا الهند بعدد كبير بسبب ما كان بها من الجذب والمحل والغلاء واستوطنوا منطقة كرمان وفارس واهواز ثم استفحل أمرهم فاضحوا أصحاب غلبة وقوة مستقلة في تلك الجهات حتى كسروا المعتصم وبدد شملهم فأجلاهم من أقطانهم وأسكن بعضهم بلدة خانقين وبعضهم مدينة جلولاء والآخرين مدينة عين زرية التي هي من مدن الشام. ومنذ ذلك الحين بدأ استخدام الجواميس في بلاد الشام ولم يكن سكان هذا القطر قد رأوا الجواميس من قبل.

وهذا موجز لتاريخ أولئك الزط الذين كانوا يقطنون جزيرة العرب منذ قديم الزمان والذين حاولوا في العهد الاسلامي إنشاء ولاية مستقلة بين البصرة وبغداد فتفاقم نشاطهم العصياني الهدام في العصر الاموي العباسي. فلما أحدثوا في تلك الجهات فوضى خيمت عليها وخيف من تأصل جزورها اضطرت الحكومة الاسلامية إلى القمع والاستيصال لثورتهم الباغية.

وقد أنجبت السلالة الزطية رجالا مبرزين اشتهروا بشخصياتهم الممتازة ومنهم ابو سائلة الزطى الذي كان واليا على السياجة القاطنين بالبصرة

(١) قريب ما اقتبس من رجال السند والهند - من ص ٢٧٣ الى ص ٢٧٥ - منقولاً من المروية

الارمنية وذلك لعدم تيسر المأخذ العرب.

من قبل على رضى الله عنه وكان رجلا كريما أميننا صالحا . ومن المبرزين محمد بن عثمان الزطى الذى كان أميرا للزط بقرار منهم أثناء غلبتهم وقتتهم . وهناك آخر من المبرزين اسمه سماق الزطى الذى كانوا قد أمروه أيضا على أنفسهم فى عصر قوتهم ونفوذهم . ومن تعلقته رغبته بأن يطلع على تاريخ حياتهم ويقف على أحوالهم فليراجع تاريخ ابن خلدون ورجال الهند .

(يتبع)

تعريب : الأستاذ عميد الرمان الفاسى الكيرالوى

(مأخوذ من مجلة « معارف » الاردنية التى تصدر من أعظم كثره)